[سورة فصِّلت وهي: خمسون وآيتان][1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾

إن جعلت ﴿حمٓ﴾ اسم السورة، فـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبره، أي: نزل به جبريل من عند الله، أو من اللوح. وإن جعل تعداد الحروف، فـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ؛ لتخصصه بالصفة، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره، أي: نزل به جبريل. ومنهم من رجح كون الكتاب مبتدأ، و﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا؛ معللًا بأنهم أنكروا أنه من الله، فلعله قصد بذلك التعليل حيث أنكروه، بل خبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ﴾، وتسمية السور السبع بكلمة واحدة لتشاكلها في النظم، والمعنى، ولتصديرها ببيان الكتاب، والإضافة إلى ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ للإشعار بأن رحمته اقتضت أن يكون مناط مصالح الدين والدنيا لمناسبة الحكم مع تلك الصفة، وتفصليها تمييز بعض الآيات عن بعض بحسب اللفظ باختلاف الفواصل، وكون معانيها مفصلة كل طائفة محكمة.

ويقرأ: ﴿فَصَلَتْ﴾[2] أي: بين الحق والباطل.

و﴿قُرْءَانًا﴾ منصوب بأعني، أو الحال من ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ج، ح)، ليست في الأصل ولا في باقي النسح . ووقع في (ح): (سورة السجدة) بدل (سورة فصلت).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٨٩/٤).

و﴿لِّقَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَنزِيلٌ﴾، أي: نزل لأجلهم، وهم الذين يعلمون العربية، أو لأهل العلم والنظر ليكون من جملة صفاته، وقيل: متعلق بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي: فصلت آياته لأجلهم، فقيل: الأول أولى كيلا يفرق بين الصفات، ويحتمل أن يقال: إن هذا التقدير لا ينافي أن يكون صفة.

و﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان أخريان، وقيل: حالان، والقرآن البشارة للميطعين والنذارة للمعرضين. وإطلاق اسم الفاعل للمبالغة كقولهم: شعر شاعر، أي: كامل في هاتين الصفتين. ويقرآن بالرفع[1] على صفة الكتاب، أو خبر محذوف.

﴿فَأَعْرَضَ﴾ أكثر أهل مكة عن قبوله والفكر فيه، فلا يسمعونه سماع تأمل. ومن قولهم: تشفعت لفلان، فلم يسمع قولي؛ لأنه إذا لم يقبل فكأنه لم يسمع القول، أو لا يستمعون إلى تلاوته.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾

جمع كِنَان، وهو ما يجعل فيه السهم، أي: أغطية، والوقر: الصمم، وأصله الثقل.

ويقرأ بالكسر[2].

والمدعو إليه التوحيد وترك عبادة غير الله، والمراد بالحجاب: ما يمنع التواصل، وذكر من الدلالة على أنه أي: الحجاب مبتدئ منهم ومن النبي ﷺ، بحيث أخذ الحجاب جميع المسافة بينه[3] وبينهم، فراغ[4]، وهو تمثيل لبعد قلوبهم وإعراضهم عما يدعوهم إليه من

(١) عن زيد بن علي والشيرزي. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢٠).

(٢) عن طلحة بن مصرف. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢٠).

(٣) في الأصل: (بينهم)، وما أثبته من (ب، ج، ن).

(٤) هكذا في جميع النسخ، ويظهر أن هنا سقطًا، ففي الأنوار: "ولم يبق فراغ". أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص٦٣٠).

القرآن، ومجّ أسماعهم، واليأس عن مواصلتهم وموافقتهم، و ﴿إِنَّنَا﴾ لذلك [1] بقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ أي: على دينك والسعي في إبطال أمرنا، ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا وإبطال أمرك، أو اعمل على هلاكنا فإنا نعمل على هلاكك، أو لآخرتك فإننا نعمل لدنيانا، وأيضًا شدة النفرة عن الشيء تصير شبيهة بالحجاب المحيط بذي النفرة، حتى يمنع وصول أثر ذلك الشيء إليه، فإذا تأكدت في القلب منعته من فهم معناه، فيكون ذكر الحجاب استعارة. وأما في الرؤية فيكون إذا رآه لم يدرك دقائق أحوال المرئي؛ لأن المدرك في الحقيقة ونفرتها يمنعها من التدبر، وكذا السمع وتخصيص الثلاثة؛ لأن القلب سلطان البدن، ومحل المعرفة، والسمع والبصر الآلتان المعِيْنَتان لتحصيل المعارف، ووجه الجمع بين الذم بهذا الكلام وتقريره في الأنعام: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الأنعام: ٢٥] أن الذم إنما يوجه لقولهم: إذا كنا كذلك لم يتوجه التكليف والأمر والنهي إلينا، وقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ وليس في الآية تكذيبهم في ذلك، وعندنا أنهم ما كذبوا في هذه الثلاثة.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾

هو جواب عن شبههم، فإن المعنى: إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان قهرًا، فإني بشر مثلكم، ولا فرق بيني وبينكم، إلا أنه أوحي إلي. وعن الحسن: أنه فيه تعليم التواضع، أنا أبلغ الوحي إليكم، فإن وفقتم قبلتموه، وإلا رددتموه. أو المعنى: إني لست بملَك ولاجني لا يمكنكم فهم كلامه، وإنما أنا بشر مثلكم أدعوكم [٧٧٧/أ] إلى ما لا ينبو عنه الأسماع والعقول، بل أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، والعقل والنقل متوافقان على قبوله.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ الانتقال من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة إلى التوحيد والإخلاص في العمل والتوجه إلى الله.

(١) كذا في جميع النسخ، ولم يتبيّن لي المراد.

واستغفروا الله عما أنتم عليه من الكفر والمعاصي، وعلى الوجهين يصح جعله جوابًا لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أنه إذا ثبتت النبوة بالموحى به لزمهم الاتباع، ولم ينفعهم دعوى كون قلوبهم في أكنة من فهم التوحيد.

﴿وَوَيۡلٞ﴾ تهديد لهم على فرط جهالتهم وعدم مبالاتهم بأوامر الله، لا سيما وعدم إعطاء الزكاة ليس إلا للبخل وعدم الشفقة على الخلق، وهو من أعظم الأخلاق الرذيلة. ولما كان المال شقيق الروح كان بذلها أدل على صدق نيته في الإسلام.

وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الإيمان، بمعنى أنهم يزيلون الكفر ويأتون بها، فلا يشكل بأنها لا تصح مع الكفر، وعدم وجوب القضاء لا يدل على عدم التكليف؛ لجواز أن يكون لمنع النفرة.

وما قيل: المعنى أنهم لا يفعلون ما يزكي أنفسهم من الإيمان والطاعة، ففيه نظر من حيث التركيب، لا سيما في التفسير بعدم اعتقاد وجوبها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (عدم الإقرار بلا إله إلا الله، وهي زكاة الأنفس)[1].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حال، يشعر بأن سبب عدم أداء الزكاة كفرهم بالآخرة. وأيضًا لاستغراقهم في حب الدنيا، والأول أنسب؛ لما روي أن كانوا يطعمون الجيعان، سوى من آمن بالنبي عليه السلام. وقيل: ذكر الزكاة دون غيرها لينضم إلى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، ولأن المال لما كان شقيق الروح كان الأداء عنوانًا للإيمان والإخلاص؛ ولهذا أمروا بتقديم الصدقة بين يدي النجوى ليتميز المنافق عن المسلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢٤/٩٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣٢٧٠). قال ابن عطية: "ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي: تطهيره من الشرك والمعاصي". المحرر الوجيز (٥/٥)، وهو رأي ابن كثير. ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٩٩).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾

أي: لهم أجر غير مقطوع، من مَنَنْت الحبل إذا قطعته، ومنه السفر، أي: قطعة أو غير منقوص، ولا ممنون عليهم به؛ إذ ورد بمعنى الثقل، ومن هذا القبيل يكون ما نقل أنه في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة، حيث يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا، والاستفهام عن الكفر بمن له هذه القدرة الكاملة وهي: خلق الأرض في مقدار يومين من أيام الدنيا، أو بنوبتين؛ للتوبيخ والتقريع، وفائدة الخلق بنوبتين مع القدرة عليه دفعة: إرشاد الخلق إلى الأناة في أمورهم.

فإن قيل: ما وجه دخول همزة الإنكار عليهم دون الكفر والعجب، والمنكر الكفر؟

قلنا: لأن المبالغة فيه أكثر، حيث جعلهم محل التعجب، فإن ظهور الدلائل على منع الكفر بحيثية لا يتصور من الناظر فيها أن يوجد منه الكفر.

وقرئ: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين، وبهمزة وما بعدها خفيفة شبه ساكنة بلا مد[1].

وحمل في "الأنوار"[2] الأرض على ما في جهة السفل من الأجرام البسيطة، ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلًا مشتركًا، ثم خلق لها صورًا بها صارت أنواعًا. وذكر بصيغة لعل وقصده بذلك التوفيق بينه وبين غيره من النصوص، وجعل الأنداد لله غير الكفر المذكور ليصحَّ العطف، فقيل: هو إلحادهم في ذاته وصفاته، وذلك الموصوف بصفة الخلق مربي جميع ما خلقها من الموجودات.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٩٢).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص٦٣١).

أي: خلق في الأرض شوامخ الجبال، وهو استئناف؛ لأن الفصل بينه وبين خلق بما ليس من الصلة يمنع عطفه عليه، والتقييد بـ ﴿فَوْقِهَا﴾ هنا دون غيره للتصريح بأن ارتفاعها عليها ليظهر للنظار ما فيها من العبر، ويكون منافعها معرضة للنظار، وأنها أثقال على أثقال، مفتقرة إلى ممسك ليس إلا الله، ولو كانت تحت الأرض لأوهمت أنها تمسك الأرض.

﴿وَبَـٰرَكَ﴾ أي: أكثر الخير في الأرض بإكثار الأشجار والنبات والحيوان، وتقدير أقوات أهل الأرض بأن عيَّن لكل حيوان ما يصلح له ويعيش به، أو قدر أقواتًا تنشأ منها لتخصيص كل قُطر بقوت، ويناسب ما يقرأ: ﴿قَسَّم﴾[1] بدل ﴿قَدَّر﴾، وقيل: المراد المطر.

وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ﴾ معناه: تتمة أربعة، أي: مع اليومين الأولين، وإلا يصير المجموع ثمانية، فيخالف قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ونظير ذلك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشر، وإلى الكوفة في خمس عشرة، أي: مع تلك العشرة.

وذكر في "الأنوار" [2] أن السبب في أنه لم يقل: في يومين لعلة الإشعار باتصالهما باليومين الأولين، والتصريح بالفَذْلَكَة، ولو قال: (في يومين) لم يفد كونهما مستغرقين بالخلق، ولما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ثم قال: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ على أنها مستغرقة بتلك الأعمال من غير زيادة ونقصان، وفي كلٍّ نظر لا يخفى على المتأمل.

و﴿سَوَآءً﴾ منصوب على المصدر، أي: استوت سواء، بمعنى استواءً، أو على الحال من ضمير ﴿فِيهَآ﴾، أو ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾، وقيل: الجملة صفة ﴿أَيَّامٍ﴾، ويدل عليه قراءة يعقوب

(١) عن ابن مسعود. ينظر: الكشاف للزمخشري (١٩٣/٤).

(٢) أنوار التنزيل (ص٦٣١).

بالجر، ويقرأ بالرفع على الخبر [1]، أي: هو سواء، والمعنى: سواء للسائلين عن مقدار زمان خلق الأرض وما فيها، أو للسائلين الرزق، فيكون متعلقا بقدَّر، وهو لا يصح إلا على تأويل ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تتمة أربعة، أي: اليومين الآخرين كما سبق، أو لمن سأل ومن لم يسأل، روى ابن عباس [٧٧٧/ب] قال: سمعت النبي ﷺ وأنا رديفه: ((**خلق الله الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، سواء لمن سأل ولمن لم يسأل، وأنا من الذين لم يسألوا الله الرزق، ومن سأل فهو جهل منه**)) [2]، أو سواء لمن سأل عن زمان خلق السموات والأرض وما بينهما، فإن اليهود سألوا النبي عليه السلام عن ذلك.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: نحوها، يقال: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه على وجه لا يلوي على غيره.

و﴿ثُمَّ﴾ لا يجوز أن يكون للتراخي؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] يقتضي أن يكون الدحو المتقدم على خلق الجبال، واستشكله في "المفاتح" [3] نظرًا إلى أن خلق: الجبال، والأشجار، والنبات، لا يكون إلا بعد الدحو، وقال: هذا يقتضي أن يكون خلق السماء بعد خلق الأرض ودحوها.

ولقائل أن يمنع دعواه ويقول: لِمَ لا يجوز أن يخلق الجبال قبل الدحو؟! غاية ما في الباب استبعاد، وأيضًا يمكن أن يكون مادة الجبال، وأما تقدير الأقوات وإيقاع البركة، فلا يلزم تأخيرها عن الدحو، والمراد بكونها دخانًا أمر ظلماني، وذكر في "المفاتح" [4] أن هذا هو المعقول؛ فإن الظلمة كيفية عدمية؛ فإن الذي جلس في ضوء السراج لا يرى الجالس في الظلمة، ويرى الهواء مظلمًا، والذي جلس في الظلمة يرى الجالس في الضوء والهواء، ولو

---

(١) قرأ أبو جعفر: (سواءٌ) بالرفع، وقرأ يعقوب: (سواءٍ) بالخفض، مثل قراءة الحسن وابن يعمر وعيسى، وقرأ الباقون: (سواءً) بالنصب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٣).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (١٠٦/٢٧).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (١٠٦/٢٧).

كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختفلت الأحوال باختلاف النظار، فالظلمة عدم النور، فالله تعالى لما خلق الأجزاء لا يتجزأ من غير ضوء فيها كانت مظلمة، ثم إذا ركبها وجعلها سموات وكواكب، وأحدث الضوء فيها صارت مستنيرة، فتلك الأجزاء كانت مظلمة قبله، فصح تسميتها بالدخان.

ونقل عن أصحاب الأثر: أن العرش قبل خلق السموات كان على الماء، فأحدث الله فيه سخونة فارتفع زبد ودخان، وأحدث الأرض من الزبد بيبوسة فيه، وأما الدخان فارتفع وخلق منه السماء، قال: وهذا ليس في القرآن، فإن دل دليل قبل وإلا فلا.

وظاهر قوله سبحانه: ﴿لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ أن الله تعالى أمرهما بالإتيان، فأطاعا. ومن ذهب إليه استشهد بتسبيح الجبال، والتجلي للجبل، وإنطاق الجوارح، فأي بعد في إيجاد حياة وإدراك فيهما، وهو كقول من حمل الإباء عن قبول الأمانة في ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] على ظاهره فإنه يدل على كونها عارفة بالله؛ لأن العدول عنه لا يجوز إلا عند تعذره.

وقال في "المفاتح"[1] الإشكال عليه: أن الإتيان إلى الوجود، وتوجه الأمر حال عدمها محال. ولقائل أن يقول: إنما يتوجه الإشكال أن لو تعين هذا التأويل، لكنه غير متعين، بل الأشهر أن المراد ﴿ائْتِيَا﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرزا ما أودعتُ فيكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة، فلعل ذلك القائل يختار هذا التأويل، وإن أريد الإدخال في الوجود فلا بد من أن يراد بالخلق التقدير، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وإن جعل ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب للرتبة، أو الإخبار، أو إتيان السماء حدوثها، وإتيان الأرض أن تصير مدحوَّة، فلا بد من المجاز في

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (١٠٧/٢٧).

﴿ثُمَّ﴾، أو ليأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما، ويؤيده ما يقرأ ﴿آتِيَا﴾[1] من المؤاتاة أي: ليوافق كل واحدة الأخرى.

والمراد بالطوع والكره إظهار كمال القدرة، ووجوب حدوث ما تعلقت به الإرادة، وكما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلنَّ شئتَ أو أبيتَ.

وهما مصدران وقعا حالين، والمعنى: في ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أنهما قالا: أتينا على الطوع لا الكره، وما قيل: إن الطوع للسماء دون الأرض لدوام الحركة، أو لأن أهل الطاعة فيها، أو لأنها أشرف، فخلاف الظاهر من غير دليل، والإتيان بالطوع يختلف بحسب الاختلاف في ﴿ائْتِيَا﴾ من الدحو، أو ما ينبغي أن يأتيا عليه من الوصف، والمراد الحصول والوقوع على وفق المراد.

قال في "الأنوار": "الأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنهما، وتمثيلهما بأمر المطاع، وإجابة المطيع الطائع، مثل: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]"[2]، وهو غير ما سبق، والإقدار على الجواب، ثم الخطاب معهما قد سبق.

والجمع بالواو والنون الذي للعقلاء باعتبار إعطاء وصفهم من الخطاب والجواب، والوصف بالطوع والكره.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

أصل القضاء: إتمام الشيء والفراغ عنه، فقيل: خلقهن خلقا إبداعيًا، وأتقن أمرهن، وجمع الضمير نظرًا إلى أن السماء جنس، أو جمع سماوة، ويجوز أن يكون ضميرًا مبهما يفسره[1] ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، فعلى الأول حال، وعلى الثاني تمييز.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٩٤).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص٦٣١).

قيل: خلق السموات يوم الخميس، وخلق الشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة، وقيل: والأرض يوم الأحد والاثنين، وسائر ما في الأرض يوم الثلاثاء والأربعاء[٢].

﴿وَأَوْحَىٰ﴾ معناه: كون وخص شأنها أو ما يصلحها، أو أمر الله الملائكة بأشياء، ونهاهم عنها، وقيل: أَمْر كل سماء: جعْل الملائكة فيها، والمصابيح: النيرات التي خلقها في السموات، وخص كلًا بضوء وسير وطبيعة معنية لا يعلمها إلا الله، وتخصيص سماء الدنيا لا يتلألأ عليها ويرى منها.

ومعنى ﴿حِفْظًا﴾: حفظناها من استراق الشياطين السمع، وقيل: معناه حافظين، وجعله مفعولًا له يكون على [٧٧٨/أ] المعنى إذ التقدير: زينة وحفظًا.

وذكر في "المفاتح": "أنه أعد لكل شيطان نجمًا، يرميه به لا يخطئه، فمنها ما يحرق، ومنها [ما][٣] يخبل"[٤]. ولعله أراد بالنجم الشهاب كما سبق في ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١].

و ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: وإن كان معناه الغالب، لكن المراد بالغ القدرة، و ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: كامل العلم بجوامع الأمور.

---

(١) في (ن): (تفسيره).

(٢) أخرج ابن جرير في جامع البيان (٢٤/٩٤)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (ص: ٦٨٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/١٣٦١)، والحاكم في مستدركه (٢/٥٩٢) أن النبي ﷺ قال: ((**إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب، فتلك أربعة أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة وآدم**))، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي فقال: "أبو سعيد البقال، قال ابن معين: لا يكتب حديثه"، وقال ابن كثير: "هذا الحديث فيه غرابة" تفسير القرآن العظيم (٤/١٠١).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ب).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٧/١١٠).

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ بعد قيام هذه الحجج فما لهم إلا العذاب، ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي: خوفتكم مبيرة مهلكة، أي: واقعة مثل واقعة عاد وثمود تنزل بكم كما نزل[1] بهم.

ويقرأ: ﴿ صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ ﴾[2]، وهي مرة من الصَّعق بفتح العين وسكونها، من باب فعلته ففعل، وذلك أن جاءتهم الرسل الذين بعثوا إليهم من كل جانب، واجتهدوا بهم، وأتوهم بجميع وجوه العبر، فلم يروا منهم إلا الإعراض.

وما قيل: المراد مجيئهم من قبلهم ومن بعدهم اعتراض عن الإعراض عليه بأنه كيف يقال: جاءهم بأن رسلهم أمروهم بالإيمان بهم وبجميع الرسل، وقيل: الضمير للرسل، أي: جاءهم رسل بعد رسل، وقيل: عبارة عن الكثرة، وقيل: ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ الذين عاينوهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الذين سمعوا خبرهم.

و ﴿ أَلَّا ﴾ تقديره بأن لا، أو المفسرة على تقدير القول، أو مخففة على تقدير بأنه لا يعبدوا، والضمير للشأن.

فقالت الكفرة تكذيبًا للرسل: لو شاء الله إرسال الرسل لأرسل جمعًا من الملائكة؛ لأنه أقرب إلى المقصود، فمفعول ﴿ شَاءَ ﴾ محذوف، والفاء للتسبب، كأنهم قالوا: فحيث لستم من الملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون؛ إذ لا فضل لكم علينا.

---

(١) في جميع النسخ عدا (ب): (تنزل)، وما أثبته من (ب).

(٢) عن عمر والزبير بن العوام وعبد الله بن الزبير وابن محيصن والنخعي. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٤)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢١).

روي أن أبا جهل قال: لقد التبس أمر محمد علينا، فلو بعثنا من يعرف السحر والشعر والكهانة فأخبرنا عن أمره، فقال عتبة: لقد علمت ذلك لا يخفى علي، فأتى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ لِمَ تشتم آلهتنا؟! فإن أردت الرئاسة عقدنا لك اللواء، وإن أردت النساء زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات قريش شئت، وإن كان المال جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، فرجع إلى أهله، واحتبس عن قريش، فقالوا له: صبوت، فأقسم لا يكلم محمدًا، فقال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء والله ما بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[1].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

هذا تفصيل كفرهم، أما عاد [2] فأظهروا النخوة والتكبر وعدم الالتفات إلى العبر أو الاستعلاء والاستخدام، والظاهر أن سبب استكبارهم الاغترار بشدة قوتهم وكبر أجسادهم، روي أن واحدًا منهم ينزع الصخرة فيقتلعها بيده.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٧١٥)، والحاكم (٣٠٠٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٠٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، قال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "، وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢٢٩/٣): "إسناده صالح".

(٢) عاد: قبيلة تنتسب إلى عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا يسكنون الأحقاف – والأحقاف: جمع حِقْف وهو المعوج من الرمل– وكانت بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشِّحْر. ينظر: البداية والنهاية (٢٨٢/١).

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ جواب لهم، وهو أنه لو كان يجب أن يكون الناقص في القوة في طاعة الكامل، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، وقوة الإنسان الشدة في البنية التي هي نقيض الضعف، وقوة الله القدرة، ولا ينافي ذكر أفعل التفضيل لأن ما في الإنسان سبب لزيادة القدرة، وكما يصح أن يقال: الله أقدر منهم باعتبار لازم القوة جاز أن يقال: أقوى باعتبار الملزوم، ولا يلزم أن يراد بهما معنى واحد.

﴿وَكَانُوا﴾ عطف على ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾، فهو في قوة التقديم.

وقوله: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ إلى آخره اعتراض.

والجحود يقال في حق من يعرف وينكر، يقال: فلان جحد الوديعة للمودع، وكانوا يعرفون الآيات وينكرونها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

الصِّر: البرد الذي يصر، أي: يجمع، أي: ريحًا باردة شديدة البرد، تهلك لشدة بردها، كما تحرق النار بحرها. عن عبد الله: (إن الرياح ثمان: أربع للرحمة: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وأربع للعذاب: العاصف، والقاصف، والصرصر، والعقيم)[1].

إن كان من الصرير فالمعنى: شديدة الصوت في هبوبها.

﴿نَحِسَاتٍ﴾: مشؤومات عليهم، والنحس: نقيض السعد. ﴿نَحِسَاتٍ﴾ جمع نحسة، وقرئ بسكون الحاء[2] للتخفيف، أو الوصف بالمصدر، أو النعت على فعل.

وقيل: باردات، أو ذوات غبار، أو متتابعات.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المطر رقم (١٧٣)، وأبو الشيخ في العظمة (١٣٠٥/٤)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو ويعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٣).

وليس فيه دليل لأهل النجوم باعتبار الوصف بالنحس لهذه الاحتمالات. وأيضًا معناها أن الله أهلكهم فيها.

روي أنها كانت في أواخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، وروي أنه ما عذب قوم إلا يوم الأربعاء[1].

وإضافة العذاب إلى الخزي من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، ويدل عليه وصف عذاب[2] الآخرة بأنه أخزى، وهذا من باب الإسناد المجازي؛ لأنه صفة المعذب وحالهم أنه لا يدفع عنهم العذاب [٧٧٨/ب] بقوة، ولعل ذكر عدم النصرة دون الشفاعة؛ لأنه أنسب بحال الاستكبار.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

أي: أرشدناهم إلى سبيل الخير، أو ميزنا بينه وبين الشر، وذلك بنصب الحجج وإرسال الرسل.

ويقرأ بالنصب[3] على شريطة التفسير، ولا يخفى ترجح الرفع لقرينته، وهي: (أَمَّا)، ويقرأ بهما منونًا[1]، وبضم الثاء[2]، فاختاروا الكفر على الإيمان باختيار الضلالة على الهدى.

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: (كُنَّ آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، وما عُذِّب قوم إلا في يوم الأربعاء). أورده بهذا اللفظ الألوسي في روح المعاني (٢٤/١١٣)، وأورده الماوردي في النكت والعيون (٥/١٧٤)، والكرماني في غرائب التفسير (٢/١٠٤٢)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٥/٣٣٣) مختصرًا بلفظ: (وما عُذِّب قوم إلا في يوم الأربعاء). قال الشنقيطي: "فهذه الروايات وأمثالها، لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه؛ لأن أغلبها ضعيف، وما صح معناه منها فالمراد بنحسه: شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم ومعاصيهم". أضواء البيان (٧/١٢٤).

(٢) في الأصل: (العذاب)، وما أثبته من (ح).

(٣) عن الأعرج وقتادة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٤)، القراءات الشاذة للكرماني (ص٤٢١).

والصاعقة: الداهية، قيل: النار، وقيل: صيحة سمعت من السماء، وقيل: الموت.

وإضافة الصاعقة إلى العذاب ووصفه بالهون للمبالغة، وكسبهم: اختيارهم الضلالة على الهدى، ومن هنا يعلم أن المراد بـ ﴿هَدَيْنَاهُمْ﴾ تمكينهم من الهداية بالدلالة، لا تحصيل الهدى فيهم، كما يقال: هديته فاهتدى.

ثم عقب سبحانه الوعيد بالوعد للمتقين من الشرك، أي: نجيناهم من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قرئ: ﴿نَحْشُرُ﴾ بالنون، والياء وبناء المجهول [٣]، والأول يوافق ﴿نَجَّيْنَا﴾، و﴿يَحْشُرُ﴾ على بناء الفاعل[٤]، أي: الله.

ومعنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليلحق المتأخر بالمتقدم، وهو إشارة إلى كثرتهم، فإذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم. وقيل: يطردون إلى النار، ومعه لا يحتاج إلى تأويل ﴿حَتَّىٰ﴾ بالواو، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور، أي: وقت إتيانهم النار هو وقت الشهادة عليهم.

روي: أن العبد يقول: يا رب، قد وعدتني أن لا تظلمني، فإني لا أقبل شاهدًا إلا من نفسي[١]، فيختم الله على فيه، وينطق أعضاؤه بالأعمال إما بخلق الفهم والقدرة والنطق

=

(١) أي: بالرفع والنصب ، فقرأ يحيى والأعمش: (وأما ثمودٌ) بالتنوين المرفوع، وقرأ ابن أبي إسحاق: (ثمودًا) بالتنوين المنصوب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢١).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٩٩/٤).

(٣) قرأ نافع ويعقوب: (نَحشُر أعداءَ الله)، وقرأ الباقون: (يُحشَر أعداءُ الله). ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٣).

(٤) عن ابن قطيب. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢١).

فيها، أو بأمارات تسمى شهادات، كما يقال: تغير العالم يشهد على حدوثه، وإذا أجري على ظاهره فكما إذا شهدت اليد بالسرقة، والجلد باللمس الحرام.

قال في "المفاتح": "هذه المسأله صعبة على المعتزلة؛ لأن البينة شرط عندهم لحصول العقل والقدرة، وإن قلنا: إن الله خلق الأصوات والحروف فيها كالشجرة، فيكون الشاهد هو الله لا الأعضاء، وظاهر القرآن يدل على أنها من الأعضاء"(٢).

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

السؤال عن شهادتها للتوبيخ والتعجب، ولا يحمل على النفس التعجب لقولهم لها: بعدًا لَكُنَّ وسحقًا، فعنكن أناضل، فأجابت الأعضاء: إنَّ نطْقنا بإنطاق الله القادر على إنطاق كل شيء، لا باختيارنا، أو المعنى: نُطْقنا لا يتعجب منه؛ فإن الله قادر على إنطاق كل شيء، إمَّا بأن يكون حيًا، أو يخلق فيه الحياة، وحينئذٍ إن لم يخلق له لسانًا- والنطق: إدارة اللسان في الفم- كان مجازًا، ولا حاجة إلى ما قيل: إن النطق بدلالة الحال لبقاء العموم وجعْل ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ﴾ من تمام كلام الجلود أولى من الاستئناف لفظًا، وهو معنى، قال ابن عباس: (من شهادة الجلود شهادة الفروج). ويحمل على الكناية لقوله تعالى: ﴿لَا

=

(١) أخرج ابن جرير في جامع البيان (١٠٧/٢٤) عن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ ضحك فسئل عن موجبه فقال: ((**ضحكت عجبًا من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، يقول: يا ربِّ، أليس وعدتني ألاَّ تظلمني؟! قال: لك ذلك، قال: فإني لا أقبل عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، قال: أليس كفى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيُختم على فيه ويتكلم أعضاؤه بما كان يعمل، قال: فيقول لهنَّ: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا عنكنَّ كنت أُجادل**)). وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٧١/١٠)، والحاكم في مستدركه (٦٤٤/٤)، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي، وأصله عند مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٧٣٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١١٧/٢٧).

﴿ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] كناية عن النكاح، و ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ [النساء: ٤٣]، كناية عن قضاء الحاجة.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أي: [ما][(١)] كنتم تسترون أي: تستخفون عند ارتكاب القبائح من الناس للفضيحة، أو لم يمكنكم أن تستتروا عن أعضائكم، أو ما كنتم تتركون القبائح، وما كنتم تستترون مخافة أن يشهد عليكم، أو ما كان الاستتار منها، فأنه غير ممكن، بل ظننتم أن تستروها من الله، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد، فما استترتم عنها، فيبنغي للإنسان أن لا يفعل شيئًا إلا يعلمه الله وعليه رقيب. وما روي عن ابن مسعود: أنه سمع ثلاثة عند استتار [(٢)] يتكلمون في أن الله [يسمع][(٣)]، فقال بعضهم: إنه يسمع ما نقول، وقال الآخر: إن رفعنا صوتنا سمع، فنزل[(٤)]؛ لا ينافي الحمل على العموم؛ لأن النظر إلى اللفظ العام.

قال في "المفاتح": "هذا صريح في أنَّ من ظن بالله أنه يَخْرج شيء من المعلومات عن علمه، فإنه يكون من الخاسرين"[(٥)].

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) في الكشف والبيان (٨/٢٩١): عن ابن مسعود ﷺ قال: (كنت مستترًا بأستار الكعبة...).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٤) الحديث أصله في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري بنحوه، في كتاب: التفسير، باب: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٨١٦)، وفي كتاب التفسير أيضًا، باب: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٤٨١٧). وأخرجه مسلم بنحوه في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم (٦٩٥٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ١١٨).

ولقائل أن يقول: يدخل فيه من قال: إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، وإن علمها علمها بوجه كلي لا جزئي، بل هو المناسب للتقييد بالكثير، والمعنى: لما ظننتم هذا الظن اجترأتم على المعاصي، فأهلككم ورماكم في النار، فالخسار: الهلاك.

و﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ مبتدأ، و ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ إما بدل، أو خبر، و ﴿ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ خبر آخر، و﴿ ٱلَّذِى ظَنَنتُم ﴾ صفة اسم الإشارة، و ﴿ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ إن جعل حالًا فعلى تقدير قد، و﴿ إِن يَصْبِرُوا۟ ﴾ يحتمل أن يكون بيان الخسران، أي: إن يصبروا في النار، أو من الشكوى والاستغاثة، أو على آلهتهم؛ لقوله: ﴿ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ [ص: ٦]، فالنار منزل ومسكن، ومعنى [٧٧٩/أ] ﴿ يَسْتَعْتِبُوا۟ ﴾ معناه: إن طلبوا الرضا فماهم بمرضي عنهم، يقال: استعتبته فأعتبني استرضيته فأرضاني، أي: لم يعطوا العتبى، ولم يجابوا إليها.

ويقرأ على بناء المجهول[1].

والمعتب باسم الفاعل أي: سئلوا أن يرضوا ربهم.

﴿ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي: من الفاعلين ذلك لفوات المكنة.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أي: قدَّرنا، أو سبَّبْنا لهم من حيث لا يعلمون، أو هيَّأنا، أو خلَّيْنا بينهم وبين الشياطين، أو سلَّطنا، فاستولوا عليهم استيلاء القيض، وهو القشر على البيض، وقيل: من قولهم: يومان قيضان إذا كانا متكافئين، والمقايضة: المعاوضة، وما قيل: بدلنا الهدى بالشياطين، فمن قولهم: قايضت فلانًا إذا بادلته.

و﴿ قُرَنَآءَ ﴾ أي: أخدانًا من الشياطين، ذكره الجوهري.

---

(١) أي: (وإن يُستَعتَبوا)، عن الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري. ينظر: شواذ لبن خالوية (ص١٣٤)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢١).

وفي الجملة دليل على إرادة الله الكفر منهم؛ فإن الله علم أنه إذا فعل أفضى إلى الكفر، فالفاعل يكون مريدًا له. لا يقال: لو فعلوا ما أراده كانوا مطيعين؛ لأنه يلزم أن يكون الله مطيعًا للعبد إذا فعل ما أراده.

و﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمر الدنيا والشهوات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أمر الآخرة، أو ما مضى من قبائح أعمالهم وما بقي منها، أو نفي أمر الآخرة من أنه لا بعث، وأمر الدنيا لا صانع إلا الطبائع.

والقول الذي حق عليهم: كلمة العذاب في جملة أمم قد مضوا وقد عملوا مثل أعمالهم، ومحله النصب على الحال من ضمير ﴿عَلَيْهِمُ﴾، أي: حق عليهم كائنين فيهم، وفيه دليل على استحالة صدور الإيمان عنهم لانقلاب القول الحق باطلًا. وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى (مع)، ونظير ما يكون واحد من جملة آخرين قوله:

إن تَكُ عن أحسنِ الصنيعةِ مَأ *** فُوكًا ففي آخرينَ قد أُفِكُوا[1]

والجن والإنس المذكورون قد عملوا في الدنيا مثل عملهم، فكانوا خاسرين، أو بالعقوبة

فإن قيل: هل يصح قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ عليه لقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾؟ قلنا: إذا كان تحقق القول في علم الله فلا بد وأن يكون وصف الخسران لذلك، وإلا لم يصح أن يكون الخسران الذي لم يقع بعد في الدنيا علة لتعلق العلم بتحقق القول.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) البيت لعروة بن أذينة، إن تك مأفوكًا -أي: مصروفًا ومنقلبًا عن أحسن العطاء- فلا عجب، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ينظر: ديوان عروة بن أذينة (ص٣٤٣)، مقاييس اللغة (١/١١٨)، لسان العرب (١٠/٣٩٠)، مادة: (أفك).

قيل: نزلت في أبي جهل وأصحابه، كانوا يقولون: إذا سمعتم القرآن عارضوه بالخرافات، أو ارفعوا أصواتكم لتشوّشوا على القارئ، أو بالمكاء والتصدية، أو اجحدوا وأنكروا، وعارضوه بهذيان وكلام غير مفهم؛ لتلبسوا عليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمدًا بهذا الطريق، فيترك[1].

وأصله الساقط من الكلام، ومنهم الخرافات.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وإن ناسب الحمل على هؤلاء، فالتعميم أولى.

والذوق يقال على القليل للتجربة، وإذا كان القليل عذابًا شديدًا فكيف بغيره.

وجزاء أسوأ أعمالهم، فقيل: الشديد ما كان يوم بدر، والأسوأ عذاب الآخرة، قد بينه بأن ذلك الأسوأ جَعْل جزاء أعداء الله النار؛ بأن تكون لهم دار الخلد، أي: دار معينة في جملة النار، وهي دار العذاب المخلد، وهو جزاؤهم بإنكار آياتنا. فقيل: المراد إلغاؤهم فيها.

ويقرأ: ﴿الغُوا﴾ بضم الغين[2]، يقال: لغا يلغو، ولغى يلغى، وتسميته جحودًا؛ لأنهم لما علموا أن القرآن قد بلغ حد الإعجاز، خافوا من أن الناس إذا سمعوا لأقروا به، فاستخرجوا طريقة فاسدة لا يفيدهم مقصودهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قرئ: ﴿أَرْنَا﴾ بالتخفيف[1] كفَخْذ في فَخِذ، أي: شيطانينا من الجن والإنس. وما قيل: إن الأكثر على أنه إبليس وقابيل، فباعتبار أن سنة الشر منهما، وقيل: أرِني بالكسر: بصرنيه، وبالسكون: أعطني.

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل (١٦٥/٣)، معاني القرآن للفراء (١٧/٣)، بحر العلوم (٢١٤/٣).

(٢) عن عبد الله بن بكير السلمي وابن أبي إسحاق وبكر بن حبيب السهمي وعيسى وابن عمير وأبي حياة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٤)، القراءات الشاذة للكرماني (ص٤٢٢).

وجعلهما تحت الأقدام دوسهما للانتقام، أو ليكونا في الدرك الأسفل من النار، فـ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ يحتمل المكان والذل، أو شدة العذاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

إن الذين اعترفوا بربوبية الله، وأقروا بتوحيده، ثم استقاموا في العمل بالقلب والجوارح.

قيل: نزل في أبي بكر لما قال المشركون: ربنا الله والملائكة بناته، واليهود قالوا: ربنا الله وعزير ابنه ومحمد ليس بنبي، فقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد عبده ورسوله، فاستقام مع أنه وقع في محن كثيرة، فلم يرجع عن الدين [٢]. وعنه أنه قال: (لم يلتفتوا إلى إله غير الله)[٣].

وفائدة ﴿ثُمَّ﴾ الإشعار بتراخي الاستقامة عن الإقرار في الرتبة؛ لأنه مبدؤها، أو لأن استتباع الإقرار الاستقامة قليلة الوجود، فسواء حمل الدين على العموم أم لا لا يلزم، وترتبها على الاعتراف، ولو حمل ﴿ثُمَّ﴾ على ظاهرها لزم ذلك.

هذا وإن الاستقامة إذا أطلقت تناولت حالة الإقرار، فيكون من قبيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، ولا يخفي أن نفي الريب عنهم لا يصح أن يكون بعد الإيمان [٧٧٩/ب]، وما روي عن الخلفاء الراشدين من أن المراد منها الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض، فهو من قبيل التفسير الذي ذكرناه.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٤).

(٢) ينظر: أسباب النزول للواحدي (ص ٣١٠)، زاد المسير (٩٩/٧)، الجامع لأحكام القرآن (٣٤٧/١٥)، البحر المحيط (٣٠٣/٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠٧٧٠).

وفي "المفاتح": احتمال إرادة كونه بين التشبيه والتعطيل، والجبر والقدر، والرجاء والقنوط[1].

ونزول الملائكة إن كان عند الموت أو الخروج من القبر فظاهر، وإلا فالمراد النزول فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن، أي: لا يخافون من توقع مكروه، ولا يحزنون على فوات محبوب.

ويقرأ: ﴿لا تخافوا﴾[2] أي: يقولون ذلك.

و﴿أَن﴾ في ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ إما مفسرة لبيان فائدة النزول، وتضمن القول ظاهر، أو مصدرية، أو مخففة، فتقدر بالياء.

والوعد بالجنة هو ما كان في الدنيا في الكتب والرسل.

وبشرى المؤمنين في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾

أي: كنا نلهمكم الخير، ونحملكم عليه، كما قال عليه السلام: ((**للملك لمة بابن آدم**)) [3]، أو بالاستغفار كما سبق، وفي الآخرة: بالشفاعة والكرامة، أو الحفظ، قيل: هم الحفظة، وقيل: الملائكة كلهم، والكفرة وأولياؤهم بينهم المعاداة، و﴿فِيهَا﴾ للآخرة.

---

(١) مفاتح الغيب (١٢٣/٢٧).

(٢) عن ابن مسعود. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١١٠٥١)، وأبو يعلى (٤٩٩٩)، والبيهقي في الشعب (٤٥٠٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الترمذي: " هذا حديث غريب"، وصححه ابن حبان (٩٩٧).

والشهوة منازعة النفس إلى الملتذ، والمشتهى: النعيم، أو الخلود، ولعل المراد الأعم. وأيضًا لا نعيم بدون الخلود.

والادعاء: افتعال من الدعاء، أو ما يتمنون، أو يطلبون، أو يجابون إلى المسؤول، أو من الدعوى أي: تدَّعون كونه لكم في الآخرة.

ولما علم أن أحدًا لا يدعي في الجنة غير مستحقه، فله ما يدعيه.

والنُّزُل: مهيأ الضيف عند النزول، وهو منصوب على المصدر، أو حال للإشعار بأن ما يعطون بالنسبة إلى ما يطلبونه كالنزل للضيف.

وقال في "المفاتح": المشتهى الجنة الجسمانية، والمدعى الجنة الروحانية، المذكورة في قوله سبحانه: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ الآية [يونس: ١٠][(١)].

ومن قال: جمع نازل فلقول:

.....***.....إنَّا معشرٌ نزلٌ[(٢)]

فيكون حالًا من فاعل ﴿تَدَّعُونَ﴾.

والدعاء إلى الله هو إلى توحيده وطاعته، والعمل الصالح بإطلاقه شامل للفرائض والنوافل، وقول: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ شبيه بمدح نفسه به، وحمل الداعي على النبي ﷺ[(٣)] أولى من المؤذِّن[(٤)] -وعلى الثاني [(١)]: العمل الصالح هو الصلاة بين الأذان والإقامة- وقيل: بلال،

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢٤/٢٧).

(٢) البيت للأعشى، وتمامه:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا *** أو تنزلون فإنَّا معشرٌ نُزُلُ

ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٦٣/٤)، المحرر الوجيز (١٠٢/٢).

(٣) ينظر: جامع البيان (١١٨/٢٤)، الوجيز للواحدي (٩٥٦/٢).

(٤) ينظر: جامع البيان (١١٨/٢٤)، معاني القرآن للنحاس (٢٦٧/٦)، قال السمعاني: "وقد ضعَّف بعضهم هذا القول؛ لأن السورة مكية، والأذان كان بعد الهجرة إلى المدينة". تفسير السمعاني =

والذي يدل على الأولوية أنهم لما بالغوا في دفع الدعوة إلى الله حتى قالوا: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، كأن الله يقول: عليك المواظبة عليها؛ فإن الدعوة إلى الدين أفضل العبادات.

وفي الإشارة إلى تحصيل مرتبة الاستكمال والتكميل الأُولى: المشار إليها بالاستقامة، والثانية: بالدعاء إلى الله سبحانه، ومنه يعلم أنه لا ترتيب أحسن من ترتيب آيات القرآن، لكن لا يعرف ذلك إلا المختص بقوة القريحة والحظ الأوفر من العلوم الإلهية.

وقيل: المراد بالداعي كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق، وأعظم المراتب مرتبة الرسل عليهم السلام؛ لأن دعوتهم بالحجة والبرهان، ثم بالقهر والسلطان ثانيًا. وأيضًا هم الأصول والعلماء يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء، وأيضًا نفوسهم أقوى وأرواحهم أصفى، فتأثيرهم في إحياء القلوب الميتة يبلغ الغاية القصوى، ثم بعدهم العلماء والسلاطين؛ لأن الأنبياء لهم العلم والقدرة، فالعلماء ينوبون منابهم في الأول، والسلاطين في الثاني، كما سبق أن السلطان بعد البرهان، ومن هنا ظهر أولوية الحمل على النبي، بل قال: في "المفاتح": لا يجوز الحمل عليه لأن أحسن الأعمال يكون واجبًا، وإلا لكان الواجب أحسن منه، والأكثر على أن الأذان غير واجب. قال: ولما ثبت أن الداخل تحت هذه الآية أحسن الأقوال، والأذان ليس أحسن الأقوال لزم أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان[٢].

ولقائل أن يمنع قوله: الأذان ليس أحسن الأقوال، نظرًا إلى كلمتي الشهادة على وجه موجه، والآية تدل على أن من جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح وأن يكون من المسلمين يكون قوله أحسن الأقوال.

وقول: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، ويقوله مفاخرًا به، ومتخذًا للإسلام، من قولهم للمجتهد: هذا قول فلان لمذهبه.

= (٥/٥١).

(١) وهو القول: بأن المراد المؤذن.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/١٢٦-١٢٧).

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

عدم الفاء في ﴿ادْفَعْ﴾ مع أنه كالمسبب عن عدم الاستواء؛ لأن المراد الجواب عن قول من سأل: كيف أصنع مع ذلك؟ قال: ﴿ادْفَعْ﴾، وقيل: ﴿لَا﴾ الثانية زيدت لتأكيد معنى النفي، والمعنى أنهما لا يتساويان في الجزاء، ولعل المراد بهما الأعم من الإيمان والشرك، والحلم والضجر، والطاعة والمعصية، والرفق والعنف، مفعول ﴿ادْفَعْ﴾ السيئة، أي: ادفعها بالأحسن منها، وهي الحسنة، على أن يراد بالأحسن الزيادة مطلقًا، أو يراد أحسن ما يمكن الدفع بها من الحسنات، وعن ابن عباس [٧٨٠/أ] رضي الله عنهما: (إن الله أمر في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والغض عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وجعل لهم عدوهم كأنه ولي حميم) (١).

وهو عام، وإن قيل: نزل (٢) في أبي سفيان، أو أبي جهل، وقيل: أن يقول لمن جهل عليه: السلام عليك.

ولما كان القصد المبالغة استأنف الكلام، وذكر الأحسن موضع الحسنة، وإذا صدر منك ذلك وجدت عدوك المخالف لك كالولي الشفيق، وما يُلقَّى هذه السجية -وهو أن يجازي الإساءة بالإحسان، ويصبر على الظلم- إلا من له الحظ العظيم من الخير وكمال النفس؛ لأن الانتقام لا يكون إلا لضعف النفس، حيث تنفعل من الواردات بالسيئة الخارجية، أما إذا كانت قوية لم تتأثر بها، أو من لها الجنة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٣٢/٢٠)، والبيهقي في الكبرى (١٣٠٧٨).

(٢) للقول بأنها نزلت في أبي سفيان، ينظر: معالم التنزيل (١٧٤/٧)، الجامع لأحكام القرآن (٣٤٦/١٥). وللقول بنزولها في أبي جهل، ينظر: النكت والعيون (١٨٢/٥)، بحر العلوم (٢١٦/٣).

ومن جملة أوصاف رسول الله ﷺ في التوراة أنه يجزي بالسيئة الحسنة، ونزغ الشيطان: تخنسه، والمراد وسوسته، أو القول الفاسد، أو الفحش لما يدعو إلى الفساد لكونها تحريضًا على الأعمال السيئة، لنقيض ما سبق من الدفع بما هو أسوأ، والمراد بالنزغ النازغ، فهو على طريقة: جد جدّه، ففيه تأكيد حيث وصف الشيطان بالمصدر الذي هو النزغ؛ ولهذا أمر بأن يستعيذ بالله ويعتصم به من شره، وأن لايطيعه، وعلل بأن الله يسمع الاستعاذة ويعلم القصد منها، وما فيه من الصلاح.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

أي: ومن الدلالات المستلزمة للعلم بكمال القدرة والوحدانية، وذكرها عقيب الكلام في الدعوة إلى الله للإشعار بأن المراد منها تقريرها، وتقديم الليل يناسب تقديم الظلمة، كما سبق من تقدم العدم على الوجود(١).

وإنما نهى عن السجود للشمس والقمر فإنهما مخلوقان، والسجود غاية التعظيم، فلا يليق إلا لله القادر الحكيم.

وتأنيث الضمير الراجع إلى الأربعة مع أن القياس تغليب التذكير؛ لأن المراد بها الآيات، وتقديم الضمير المنصوب للإشعار بأن دعوى عبادة الله وحده تقتضي أن لا يكون معها عبادة غير الله، لا كما يفعله الصابئون، حيث يسجدون للكواكب زاعمين بأن القصد سجود لله سبحانه، والمراد الاستكبار عن قبول الحق، لا التعظيم لما قيل: إن عبدتهما قالوا: نحن أقل من أن نكون عبيدًا لله، بل عبيدهما، وهما عبدان لله، والمراد بالعندية قرب المكانة لا

(١) عند تفسير الآية (١) من سورة الأنعام.

قرب المكان؛ ليكون دليل المشبهة، كما قال تعالى: ((**أنا عند المنكسرة قلوبهم**))[1]. والحمل على نحو: عند فلان ألف درهم لا يناسب السياق، والمراد الملائكة.

وموضع السجود عندنا ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لافتراق الأمر بالعبادة به، وإليه ذهب ابن مسعود والحسن، وعند الحنفية ﴿يَسْـَٔمُونَ﴾ نظرًا إلى أن تمام الكلام.

قيل: التسبيح منهم كالتنفس.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

أي: من جملة دلائل كمال قدرته أنك ترى الأرض يابسة، أو ذليلة بالقحط، مستعارة من الخشوع، بمعنى التطامن، فإذا أنزل الله المطر عليها تزخرفت، وانتفخت بالنبات، أو انفطرت به.

ويقرأ: ﴿ربأت﴾[2] أي: زادت.

إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها لمحيي الموتى عند النفخة الأخيرة؛ وذلك لأنه على شيء من الإحياء والإماتة لَكَامل القدرة، وهو إتْبَاع لآية أرضية بآية سماوية، وحاصل بحث البعث أن إعادة التركيب إلى أجزاء الموتى أمر ممكن لذاته، وإلا لما حصل أولًا، والله قادر على كل ممكن، فيكون قادرًا عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٦٤، ٦/١٧٧) عن مالك بن دينار وعن عمران القصير -فرّقهما- قالا: قال موسى عليه السلام: يا رب، أين أبغيك؟ قال: (ابغني عند المنكسرة قلوبهم).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٢٠٧).

أي: يميلون، يقال: ألحد الحافر، ولحد، إذا مال عن الاستقامة، يحفر في شق. هذا أصل الوضع، واختص في العرف بالمائل عن الحق إلى الباطل.

والمعنى بعدم الخفاء التهديد، كما يقول المهيب: من ينازعني فأنا أعرفه.

والمُلقَى وإن حُمِل على أبي جهل، والآمن بالنبي ﷺ، أو بعمر، أو عثمان، أو عمار رضي الله عنهم، فالحمل على العموم هو الظاهر؛ لعموم اللفظ.

وفي مقابلة الملقى بالآمن إحمادٌ لأمر المؤمنين.

و﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ أمر تهديد مؤكد بكونه سبحانه بصير بكل شيء، فيكون عالما بعملهم فيجازيهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾

جعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا من ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ أولى من الاستئناف؛ لما فيه من البيان والربط.

والذكر: القرآن. وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، مثل: ﴿يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤] معاندون، أو هالكون.

وإن القرآن لكتاب كثير النفع، وقيل: من تمسك به أعزه الله في الدارين، أو لا يقدر أحد أن يأتي بمثله، أو ممتنع من الباطل أو من التغيير؛ لما فيه [٧٨٠/ب] [من][1] البيان ووضوح البرهان.

و﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ يناسب التفسير الأخير، سواءً حُمل الباطل على الشيطان، أو التبديل، أو التناقض، أو الكذب.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح، ن).

ومن بين يديه وخلفه حمل على المبالغة، أي: بوجه ما، أو في إخباره عما تقدم وعما تأخر، أو لفظه وتأويله.

فإن قيل: ما وجه ربط ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؟!

قلنا: جاز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، يرجع إلى الكتاب، فيكون صفة أخرى له. وجاز أن يكون استئنافًا للتعليل، كأنه جواب من قال: لِمَ لا يأتيه الباطل؟ فقال: لأن المنزِّل موصوف بكمال العلم، يحمده كل أحد بما يظهر عليه من نعمه، ومثله لا ينزِّل كتابًا فيه نقص من وجه.

ومعنى ﴿مَّا يُقَالُ﴾: لا يقول لك قومك إلا ما قالت الأمم لرسلهم من نسبة الكذب والسحر والافتراء، ويتناول الكلام في الموحى إليهم. أو المراد: ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل، وأَمَرَهم بالصبر على سفاهة الأقوام، فكأنه فيه تسلية للنبي ﷺ باعتبار أن مثل هذا الكتاب المنزل على مثل هذا الرسول ما كان ينبغي أن يقال فيه مثل ذلك. إن هذا ديدن الكفرة في سوالف الأيام، فلا يبعد من كفرة قومك.

والله ذو المغفرة للمحقين، وذو عقاب أليم للمبطلين، وفوضِ الأمر إلى الله، واشتغل بالدعوة إلى الله سبحانه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

هذا وإن ناسب قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] لكن الأنسب النظر إلى قولهم: هلا نزل القرآن بلغة العجم تعنتًا منهم، ووجه الأول أنه لو نزل بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: قلوبنا في أكنة من هذا الكلام، أما إذا كان بلغتكم فكيف يمكنكم الادعاء كون القلوب في الأكنة، فلم يبق مع كون القرآن مرشدًا إلى الخيرات إلا الخذلان بمتابعة الشيطان. وللأولين أن يقولوا: إن معنى قول المقترحين: إنه لو نزل بلغة العجم لكان أقرب

إلى المعجزة لعجز النبي عن نظم كتاب للغتهم، وهذا الوجه رجحه - نظرًا إلى أن النظم به أليق- صاحب "المفاتح"[(١)] والآخر غيره، والضمير للذكر، والمعنى أنه لو كان بلغة العجم لتقرب العرب به وقالوا: هلاَّ ثبتت آياته بلسان يفقهه، أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟! أو منزل عجمي ومنزل عليه عربي؟! فهو إنكار يقرر التخصيص.

ويقرأ: ﴿أعَجميّ﴾ بفتح العين[(٢)]، منسوب إلى العجم، وعلى الإخبار، وقرئ بهمزتين، والأكثر بهمزة[(٣)]، وقيل: المراد بالأعجمي: غير المبين، وقال في "الأنوار"[(٤)] على فرض الإخبار يصح أن يراد بتفصيل الآيات أن يكون بعضها بلغة العجم، وبعضها بلغة العرب، لإفهام الفريقين.

ثم وصفه الله تعالى بأنه يهدي المؤمنين إلى طريق [مستقيم][(٥)]، ويشفي صدورهم من إزالة الشك عنها، فإنه مرض القلب، وغير المؤمنين لإعراضهم عنه بمنزلة من في أذنه صمم، والقرآن على أولئك عمى لا يبصرون معه رشدهم، أو المراد عمى القلب، وذلك لتعاميهم عنه. ويحتمل أن يكون التقدير: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر. وهذا عند من يجوّز العطف على عاملين مختلفين.

والنداء من بعيد المراد به أنهم يسمعون الصوت ولا يفهمون معناه، فهم كمن يسمع من بعيد. وقيل: بعيد عن قلوبهم، أو بعيد من الإجابة، وهو مثل لمن لا يفهم.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (١٢٣/٢٧).

(٢) عن الحسن وأبي الأسود والجحدري وسلام والضحاك وهشام. ينظر: القراءت الشاذة للكرماني (ص٤٢٢).

(٣) قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي وخلف: (ءأعجميٌّ) بهمزتين، وقرأ الباقون: (ءَاعجميٌّ) بهمزة واحدة ممدودة. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٣-٣٩٤).

(٤) أنوار التنزيل (ص٦٣٦).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

أي: التوراة فاختلف فيه أمته بأن صدق بعضهم وكذبه آخرون، أو حرفوا، أو غيروا، ومقتضى فعل العصاة مجيء العذاب، لكن لولا كلمة سبقت بتأخيره، وهي الأجل المسمى، أو ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أو ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، أو ﴿ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر: ٤٦]،لأهلكم الله بالاستئصال.

وإن بني إسرائيل لفي تهمة من التصديق ومن قال تم الكلام على ﴿فَٱخْتُلِفَ ﴾ كاختلاف قومك، ولولا الكلمة لجاء قومك العذاب. وعلى هذا فالمعنى: وإن كفار أمتك ﴿لَفِى شَكٍّ ﴾ من صدقك، والكتاب الذي أنزل عليك، فذكر موسى وقومه للتسلية.

و﴿ مَّنْ عَمِلَ ﴾ شامل للقسمين، إذ المعنى: إن كل عامل يصل إلى جزاء عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، لا يتعدى إلى غيره.

وذكر المبالغة في الظلم قد سبق أنه يكون باعتبار الكيفية، فإن أي قدر من الظلم صدر من الله يكون ظلَّامًا، ويقرب منه ما قيل: إن ظلم وهو يعلم أنه ظلم فهو ظلَّام، وباعتبار الكمية لأن كثرة العبيد اقتضى ذلك.

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ذكر وصول كلٍ [٧٨١/أ] إلى جزاء عمله فكأن سائلًا سأل عن وقته، فأجيب بأنه مختص بالله سبحانه، وعلم ذلك بتقديم الظرف إذ المعنى أنه لا يرد علمها إلى غيره، أو أن

كل من سئل عنه قال: علمها عند الله، حتى قيل: يجب على المسؤول أن يقول ذلك، وكذلك الحوادث المستقبلة علمها عند الله تعالى.

وأكمام الثمرة: أوعيتها التي هي فيها، جمع كم أو كمة.

ويقرأ: ﴿مِن ثَمَرَتٍ﴾[1]، ولا يشكل ذلك بما يذكر من علم النجوم، أو الرمل وغيرهما، لأن تلك ظنون، والكلام في العلم. و ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حال، وذكر الشركاء بالإضافة بحسب زعمهم واعتقادهم.

ومعنى ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أسمعناك، أو أخبرناك. وقيل: أعلمناك. واعترض عليه بأن الإعلام في حقه محال؛ لأن أهل القيامة يعلمون أن الله يعلم الأشياء علمًا واجبًا.

ومعنى ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: لهم، وقيل: ما يشهد منا أحد على أن لِله شريكًا، يعني أنهم يتبرأون من معبوديهم يوم القيامة، والسؤال للتوبيخ، وقيل: يقوله المعبودون، أي: ما منا من يشهد لهم أنهم كانوا محقين. وقيل: هو كلام الفريقين، ومعنى ﴿يَدْعُونَ﴾: يعبدون، وضلاله عدم الانتفاع به، وحمل الظن على العلم لأن يوم القيامة صار الغيب شهادة، حيث عاينوا الأمر، وهو هنا معلق لمكان ﴿مَا﴾ للنفي لئلا يبطل الصدرية كما في الاستفهام. والمحيص: المهرب والمخلص من عذاب الله، ومن وقف على ﴿وَظَنُّوا۟﴾ وجعل المفعول تلك الآلهة خرج عن التعليق بزعمه.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

(١) هي قراءة أبي جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم، وقرأ الباقون: (من ثمرةٍ) على الإفراد. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٤).

ووجه الربط مذمة الإنسان لا سيما الكفرة فهو من قبيل أحوال الأمم المكذبة، أي: لا يمل من طلبه وجمعه له، إذ هو المراد بالخير، كما قيل: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢]، أو الصحة والعافية.

ويقرأ: ﴿مِن دُعَاءٍ بِالخَيرِ﴾[1]، وإن من مسه الفقر أيس من الخير، وقنط من الرحمة، والمبالغة من جهة الأصل، والتكرير حمل على الكافر، لا سيما وعقبه بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، واليأس صفة القلب، والقنوط ظهور آثاره في الوجه، أي: يكون قنوطًا من عود النعمة، ثم إن رزقناه غنى أو عافية بعد زوالها بغى، وذكر كلامًا فاسدًا منه أنه يستوجب على الله ذلك، وذلك باطل؛ لأنه إن لم يكن فضيلة تقتضيه بزعمه فظاهر، وإن كانت فتلك أيضًا من نعم الله، وإذا تفضل الله بشيء كيف يصير سببًا لاستحقاقه على الله شيئًا آخر؟! وقيل: معناه ﴿هَذَا لِي﴾ ولا يزول عني، ثم من شدة الميل إلى الدنيا والنفرة عن الآخرة أنكر الساعة، والظن على أي وجه حُمِل لَزِم كفره.

ثم قال: وبتقدير أن تقوم الساعة فالله يفضلني بما يحسن ذكره، وهو ضد السُّوأَى، أو الجنة، كما فضلني في الدنيا؛ لدلالة فضل الدنيا على الرضا مني. قيل على وجه الاستهزاء، أي: إن كان الأمر كما يقوله المؤمنون، ثم رد الله عليهم ذلك بأنه سيظهر لهم أن الأمر على ضد ما تصوروه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ الآية [الفرقان: ٢٣]، أي: لجزيناهم بقبائح أعمالهم.

والعذاب الغليظ: الشديد الذي لا يفتر عنه.

فإن قيل: ما وجه قول من حمل الإنسان على الجنس، وظاهر الكلام بأن ما حكى الله عنهم من لفظ الكفر صدر عن جميعهم، أو التعقيب بجزاء الكفرة يشعر بأن المراد الكفرة، ولا يأس من روح الله؟

---

(١) عن ابن مسعود. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٤).

قلنا: يحتمل أن يوجه باعتبار أن الصادر عن بعض الجنس ينسب إلى الجميع تجوزًا لوقوعه بينهم، وهو ضعيف لارتكاب المجاز من غير ضرورة.

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٢ ﴾

أي: أعرض عن شكر تلك النعمة، وتكبر.

والنأي بالجانب: التباعد الكلي؛ لأنه إذا أبعد جانبه الذي هو فيه، فقد بعد وأبعد ما يعلق به، وهو كناية عن التكبر. والجانب كناية عن النفس كالجنب في جنب الله، كالنفس في جنب الله.

وأريد بعرض الدعاء عند إصابة الفقر إياه كرمه ودوامه على وجه الاستعارة، كما استعير لشدة العذاب الغِلَظ؛ لأنه في الأصل من صفات الأجرام، وفيه مبالغة، فإنه إذا كان هذا العرض فما حال الطول الذي هو أطول الامتدادين؟!

ومعنى ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ ﴾ إلى آخره أنه يقال للكفار: إنكم حينما سمعتم القرآن بادرتم إلى التكذيب من غير تأمل فيه، ومن المعلوم أنه غير بدهي الفساد عندكم، بل يحتمل أن يكون صحيحًا، فيجب النظر والتأمل فيه، ولا يصروا على الكفر به، فإنه بعيد عند العقل أيضًا والقياس. ﴿ مَنۡ أَضَلُّ ﴾ منكم، لكن وضع الموصول موضع الصلة لشرح حالهم، وتعليل مزيد ضلالهم، والمراد بالبعيد البعيد عن الوفاق، والمعنى: لا أضل منه.

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤ ﴾

هذا الكلام يجري مجرى الجواب عن شبهات الكفرة، وإزاحة تمويهاتهم.

والآفاق جمع أفق، وهو الناحية من نواحي الأرض، وكذا آفاق السماء.

وذكر في الآيات وجوه، فذهب في "الأنوار" [1] إلى ما هو المرجح عند الأكثر، وهو الذي أخبر عنه النبي ﷺ من الحوادث الآتية [٧٨١/ب] وآثار النوازل الماضية، وما فتح الله عليه وعلى خلفائه من الظهور على مشارق الأرض ومغاربها على وجه خارق، وأراد بهذا الاحتراز عن أن يقال: الاستيلاء لا يدل على حقية الدين، والاستدلال بذلك إنما هو باعتبار أنه أخبر وصدق فيها لا بنفس الاستيلاء. وقيل: كل ما يدل على التوحيد من الحوادث، وقيل: آثار المكذبين، أو آثار خلق الله في جميع العالم، أو الآيات الفلكية كالشمس والقمر وأحوالهما، وقيل: انشقاق القمر.

قال في "المفاتح" [2] فإن قيل: الحمل على الآيات الدالة على الإله القادر الحكيم من الحوادث، وجميع البدائع من: الآيات الفلكية، والليل والنهار، والظلمة والنور، والظل والحرور، وآيات عالم العناصر، وما في الأنفس: كالأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ضعيف؛ لأن ظاهر اللفظ أنهم ما أطلعوا عليها، وسيطلعهم عليها، والآيات الموجودة في عالم الأعلى والأسفل قد أطلعهم الله عليها قبل، فأجاب عنه بأن القوم وإن كانوا قد رأوها، لكن لما كانت تلك العجائب غير متناهية، والله سبحانه يطلعهم عليها زمانًا بعد زمان، اندفع الإشكال.

والآيات الأنفسية قد فسرت كآيات الآفاق بما ظهر فيما بين أهل مكة، وما حل بهم، وعلى هذا فالآفاق: نواحيها وأقطارها التي فتحت.

و ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ قيل: القرآن، أو النبي، أو الله، أو وحدانيته. فإن قيل: ظاهر اللفظ أن الإراءة تستمر إلى تبين الحق، ثم تنقطع عنهم، وهي ظاهرة لهم أبدًا. قلنا: المقصود الإشارة إلى ترتب المقصود الذي هو وضوح الحق، وهو على فرض إرادة النوازل والحوادث ظاهر، وعلى التفسير الآخر معناه أنه إذا كان القصد من الإراءة ظهور الحق، فينقطع بحصوله.

---

(١) أنوار التنزيل (ص٦٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤٠/٢٧).

ومعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾: أوَلم يكفِك -يا محمد- أنه سبحانه شهيد على كل شيء، محقق له، فيظهر أمر دينك بالآيات التي وعدها، كما حقق غيرها مما وعد بها. أو المعنى: أوَلم يكف زاجرًا للإنسان عن المعاصي كونه سبحانه مطلعًا على كل شيء.

والباء زيدت للتأكيد، ولا يكاد يزاد في الفاعل إلا مع كفى، نحو: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

والمرية تقرأ بالضم[1] كخُفيَة، والمعنى أنهم في شك عظيم من البعث والجزاء.

وكونه سبحانه محيطًا بكل المعلومات الإشارة إلى أنه يكون عالماً بما في بواطن الكفرة من الشك وغيره.

ولقائل أن يقول: يمكن أن يحمل على أحد الدليل على صحة الحشر كما سبق غير مرة أنه متوقف على علمه سبحانه بالأجزاء المتبددة عن كل إنسان، والدليل الثاني وهو القدرة، قد عُلِم بذكر آيات الأنفس والآفاق، والله أعلم.

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/٢١٢).